

تجليات التلقي الفلسفي للنص الشعري: منهج البلاغ لحازم القرطاجي نموذجاً.

• ذ.أبوالقاسم السعيد.

الملخص: يتناول هذا المقال، تحليل ظاهرة التلقي الفلسفي، عند حازم القرطاجي، وهو موضوع - يبدو لي - أنه لم يمنح العناية التي يستحقها بالقدر الكافي، رغم ما ألف من دراسات عديدة حول تجربته التي ركز أصحابها على قضايا القصيدة أكثر من تناول البعد الفلسفي، بالنظر إلى خصوصية الكتابة النقدية لديه، الموسومة بالبعد الفكري والفلسفي، إضافة إلى ما يزر به المتن النقدي العربي من إرهاصات أولية حول مظاهر التلقي للنص الأدبي، خاصة على مستوى المتلقي وأحوال تلقيه قراءة وسماعاً، بواسطة مكونين أساسيين التخيل والمحاكاة، كتعبير عن إسهامات النقاد العرب في مجال نظرية التلقي.

تمهيد :

تعتبر نظرية التلقي من أهم الفتوحات النقدية الحديثة في مجال تجديد تاريخ الأدب العربي كامتداد تاريخي للعديد من التصورات النقدية والبلاغية القديمة حول المعنى، منذ العصر اليوناني، وكثيرة من التطور النقدي خلال مرحلة السبعينيات، لمجموعة من المناهج النقدية الحديثة، خصوصاً مدرسة (كونستانس) الألمانية، التي يرجع إليها الفضل في ظهور نظرية التلقي بألمانيا الغربية على يد رائدها " هانس روبرت يوس" (H.R.JAUSS) الذي اهتم بالتاريخ النصي، في حين ركز (إيزر) على تأثير النص في المتلقي، باعتباره المنتج الحقيقي للنص، بواسطة مجموعة من العمليات التأويلية والتفسيرية والتطبيقية التي تسهم في بناء معناه.

وبالنظر إلى أهمية نظرية جمالية التلقي، في مقارنة النص الأدبي، فقد أحدثت ثورة في الدراسات الأدبية وبتجلى ذلك في إعلانها من تغيير النموذج في علوم الأدب، وك أن محرك ذلك التغيير هو التحول في الاهتمام الجذري من دراسة ثنائية (الكاتب/النص) إلى تحليل العلاقة (النص - القارئ).

واعتباراً لهذه الإمكانيات النقدية التي تتيحها، في مجال قراءة النص، فقد كان لها، تأثيراً قوياً وشديداً في

مجال قراءة التراث النقدي العربي القديم، وذلك عبر استنطاق جوانبه الخفية واستكناه بنياته النصية والتعالقية والتقبلية لما يزرع به المتن النقدي العربي القديم من أشكال مختلفة للمتلقى المبدع، وهذا ما أدى بعدد كبير من الباحثين العرب المحدثين بالرجوع إلى التراث النقدي العربي القديم ودراسته وتحليله من منظورات نقدية مختلفة، والبحث فيه عن آراء المفكرين العرب القدامى حول القارئ وملاسته (المتلقي)

والمقارنة أحيانا بين رواد التلقي في الأدب الغربي ونظيره العربي القديم، من خلال "رواد النظر و ذوي

القامات العالية في فكرنا النقدي من أمثال بن قتيبة والجاحظ وعبد القاهر الجرجاني. وهي مقارنة لا

تشير - بحال من الأحوال - إلى قناعاتنا بأن النظريات الغربية الحديثة في مفهوم التلقي قد وصلت إلى

مستوى الأشباه والنظائر¹، تجنباً للوقوع في الإسقاطات النقدية، بل باعتبارها تجليات وإرهاصات أولية حول

مظاهر التلقي في التراث النقدي العربي القديم. وخير دليل على ذلك حضور مفهوم التلقي الفلسفي عند

النقاد الفلاسفة العرب القدامى، ماورد في كتاب حازم القرطاجني "من ألفظ ومصطلحات خاصة بأثر الكلام

في نفس المتلقي²، واستفادتهم من مفاهيم نظرية التلقي خصوصا مفهوم (أفق التوقع) و(المتلقي)

و(المسافة الجمالية).

لقد فتحت هذه النظرية آفاقاً في مجال القراءة الحداثية للنصوص، بواسطة مجموعة من المفاهيم الإجرائية

الأساسية، ومكنت النقاد العرب المحدثين، من مقارنة المتن النقدي العربي القديم الكبير بحماس كبير

¹ - محمود عباس عبد الواحد : قراءة النص وجمالية التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي. دراسة مقارنة. ص 9.

² - محمد بن الحسن : التلقي لدى حازم القرطاجني. عالم الكتب الحديث. إربد. الأردن. ص 15.

بههدف إعادة كتابة تاريخ النقد العربي القديم، واستجلاء درره المشرقة المتمثلة في الإسهامات الجينية للنقاد العرب القدامى في مجال التلقي والنص والخطاب، نظرا لطبيعة العلاقة الجدلية ما بين المتلقي والنص في التراث النقدي العربي، القائمة على نوع من التعاقد بين أطراف التخاطب، والذي خصه النقاد العرب باهتمام خاص عبر مختلف العصور، في ثنايا أحكامهم على النص الأدبي وعلاقته بمتلقيه، كإحدى مظاهر الإبداع الفني في الممارسة النقدية القديمة، والمتمثلة فيما شتمل عليه النقد العربي القديم من نظرات ثاقبة "وفكر حافل بنظرات دقيقة قابلة لأن تكون عماد رؤى الناقد الحديث" ³، والتي تدل على وعي النقاد العرب القدامى بأهمية المقاربة الجمالية للنص الأدبي، وذلك عبر إقامة تماثل ما بين عالم النص الأدبي والعالم الخارجي.

يعتبر مفهوم التلقي من المفاهيم النقدية التي اهتم العرب بها، بصورة واضحة، في أغلب مدونات التراث، لا سيما في الدرس النقدي " إذ يمكن مبدأيا الإنطلاق من فكرة مركزية في معالجة مثل هذا الموضوع، وهي أن الوعي النقدي بعملية التلقي وصوره، كان له تجلياته وحضوره في كتابات ونقاد وبلاغيي العرب على الرغم من بساطة الطرح وغياب رؤية واضحة بإمكانها استيعاب فلسفة نظرية وجمالية مكتملة العناصر والأركان ⁴، نتيجة خصوصية البيئة العربية، وغياب المؤثرات الفلسفية التي ساهمت في ظهور نظرية التلقي بالغرب، "غير أن هذا لا يمنع من اعتبار موز وع التلقي مشكلة توجد حيثما يوجد الأدب بحيث من الصعب تصور انصراف الدراسات العربية بخاصة النقدية عن مفهوم مهم مثل التلقي ⁵.

ذ. أبو القاسم السعيد أستاذ بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بجهة الرباط سلا القنيطرة.

⁴ - محمد المبارك : استقبال النص عند العرب، ص 10.

⁵ - محمد المبارك : المرجع نفسه، ص 10.

ويتميز مفهوم التلقي أو جماليته في تراثنا النقدي العربي القديم، مقارنة مع حركات النقد الأجنبي في أنه لم يرتبط لدى رواده بنزعات فلسفية عامة على نحو ما كان معروفا في فلسفة النقد اليوناني مثلا، وهذا شيء طبيعي نتيجة اهتمام العرب بالشعر "الذي كان فنهم الأوحى، وعلمهم الذي لم يكن لهم علم أصح منه".⁶

غير أن اهتمام النقاد العرب القدامى بالتلقي، كان مرتبطا بجملة أحكامهم بقضايا النص، ولهذا جاء ماثورا في تضاعيف الأحكام، متعدد المفاهيم، بتعدد الملكات، أو باختلاف العوامل المؤثرة في تاريخ الأدب وتقدير النقاد، ومع تعدد المفاهيم واختلاف الرؤى في استقبال النص كان البحث عن المتعة الفنية من أبرز منافذ التواصل مع المتلقي"⁷، وفق تصورات مختلفة، حسب بيئة كل ناقد، التي كانت تعج بمختلف التيارات الكلامية خصوصا خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، مع التركيز على أهمية القارئ.

وخير دليل على تجليات مفهوم التلقي في التراث النقدي العربي القديم، إسهامات النقاد البلاغيين، عبر نظرية التمكين البلاغي، التي تعكس إحدى أهم مظاهر تجليات التلقي، نتيجة نزوع علوم البلاغة بأقسامها الثلاثة (البيان والبدیع والمعاني)، نحو دراسة المعنى دراسة تنقصى وجوه تحصيله ووجوه تمكينه في ذات السامع (المتلقي)، "أي أن العرب اعتقدوا أن الأساليب التي تدرسها علوم البلاغة الثلاثة هي وسائل مختلفة غايتها تمكين المعنى، وعلى ذلك فإن قوانين العلوم البلاغية الثلاثة هي قوانين للتمكين".⁸

ويعتبر الناقد المغربي حازم القرطاجني من بين هؤلاء النقاد المجددين، الذين استطاعوا أن يبلوروا معالم نظرية نقدية متميزة، خلال القرن السابع عشر الهجري بالمغرب، مستفيدا من تجربته النقدية الموسومة بالبعد الفكري والفلسفي والبلاغي إضافة إلى تجارب نقدية سابقة في المشرق والمغرب المتمثلة في إنجازات كبار النقاد العرب القدامى، مثل بن طباطبا العلوي وبن سينا والفارابي وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم من

⁶ - بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وأدابه نقدته تحقيق محيي الدين، بيروت 1976، ج.1 ص27.
⁷ - زين العابدين حميلي: إرهابات نظرية جمالية القراءة في التراث النقدي العربي القديم، مجلة آفاق، المركز الجامعي لتفمنغاست، الجزائر العدد الثالث عشر/أبريل 2017، ص.2.
⁸ - ناظم عودة خضر: الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ص.61.

النقاد العرب القدامى، ناهيك عن تمثله للفكر اليوناني عند كل من أفلاطون و أرسطو، مما جعل من تجربته النقدية موسومة بالبعد الفكري والفلسفي، و تحولاً في مسار النقد العربي القديم، لما توصل إليه من تصور كلي للنص، متجاوزاً أحكام الجملة في الخطاب النقدي العربي القديم، المقتصرة على المستوى النحوي والتركيبي، إلى مستوى النص باعتباره وحدة كلية ومنسجمة على مستوى الإتساق المعنوي واللفظي مشكلاً "حالة فريدة لم تتكرر ينبغي الإشارة إليها والتتويه بها وهي التي نجدها عند بلاغي مغربي متأخر، هو "حازم القرطاجني" في تحليله لأجزاء القصيدة..."⁹. واهتمامه الكبير بالقارئ في تفسير العمل الأدبي.

فما هي مظاهر التلقي عند حازم القرطاجني، وما هي أبعاده الفلسفية ؟

اهتمت النظرية النقدية العربية القديمة اهتماماً بالغاً إلى أثر الشعر على المتلقي سامعاً وقارئاً، وبلغت هذه العناية حداً يدفعنا إلى القول أن النقد العربي وضع المتلقي في منزلة مهمة من منازل الأدب. وقصده بخطابه النقدي قصداً، وحث الشعراء على أن يكون شعرهم متوجهاً إليه، فهو الموثل الذي يقف الأدب عنده وهو الغاية من كل قصيد وإنشاد. فالنصوص الأدبية ليست من إنتاج الأديب والشاعر فقط بل هي أيضاً من إنتاج المتلقي..."¹⁰. لقد ترسخت هذه الفكرة حول المتلقي، بربط الشعر بالتأثير النفسي منذ البدايات النقدية العربية، ولعل محاولة بن قتيبة (276هـ) في تحليل بناء القصيدة العربية التي أقامها على العلاقة بين موضوعات القصيدة وتأثيرها في الجمهور أو السامع "المقصود" تمثل صورة جلية في التركيز على المتلقي السامع أكثر من المبدع وعملية إبداعه. ووقف بن طباطبا العلوي (322هـ) عند تأثير الشعر على السامع، في العديد من الإستشهادات النصية في كتابه (عيار الشعر)، بل رأى أن من الواجب على

⁹ - صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النص. كتاب عالم المعرفة أغسطس 1992، العدد 164 ص 244.
¹⁰ - محمد المبارك : استقبال النص عند العرب . المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى. 1999. ص 9.

"صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة لطيفة مقبولة حسنة مجتنبة لمحبة السامع له والناظر إليه

بعناية، مستدعية لعشق المتأمل في محاسنه"¹¹.

ولم يند عن هذه القاعدة المتعلقة بأهمية المتلقي خلال العصور الأدبية اللاحقة معظم النقاد العرب خصوصاً الناقد عبد القاهر الجرجاني الذي شكل منعطفاً في تاريخ نظريات النقد عند العرب خلال القرن الخامس، بما قدمه من إنجاز في مجال تلقي النص وقراءته على مستوى بناء نموذج نقدي تأولي، غير أن تجربة حازم النقدية لا تقل أهمية عنه خلال القرن السابع الهجري، باعتباره من النماذج النقدية التي تثير الأسئلة، بقدر ما تجيب عن قضايا نقدية خصوصاً في مجال النص والتلقي، "إذ يعتبر من النقاد العرب القلائل الذين أدركوا أهمية بناء النص وتداخل مستوياته وتأثيره على المتلقي، ولذلك ظل بمثابة خطاب مفتوح بالنسبة للدراسات النقدية الحديثة في العديد من الجامعات والمحافل الأدبية والنقدية، باعتباره من كبار النقاد العرب القدامى، الذين اشتهروا بالفكر النقدي الفلسفي، بل من أنضج الذهنيات النقدية التي عرفها العرب إلى حدود القرن الثامن الهجري، التي ظلت خالدة، إلى يومنا الحالي، لما اتسم به كتابه من حيث سعة أفق كتابته وسداد نظرتة وحسن تدووقه وتفهمه للقضايا التقنية التي تميز بها أسلوبه وتأثره بتيارات فكرية من خارج ميدان النقد الصرف"¹²، مما يصعب على الباحث الإلمام بجميع نظرية الإبداع والنقد عند حازم القرطاجني، بالرغم من الدراسات العديدة التي أنجزت حول فكره لنقدي، وهذا ما نتبه إليه الدكتور سعد مصلوح الذي استنتج أن لحازم ذاتية متفردة بين علماء البلاغة والنقد العربي، فقد خلص إلى أنه مع ذلك "هذه الشخصية ما زالت بالرغم من المحاولات المخلصة التي بذلت وتبذل لم تتل ما تستحقه من عناية أو لم توضع في حق موضعها بين أعلام الفكر العظام"¹³، ولا أدل على ذلك ما اشتمل عليه كتابه من غزارة في المصطلح النقدي، على مستوى بناء النص الشعري أو على مستوى تلقيه، بحيث

¹¹- بن طباطبا العلوي : عيار الشعر، تحقيق جواد عبد الستار، ص 21.

¹²- سعد عبد العزيز مصلوح : حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة، ص 4.

¹³- سعد عبد العزيز مصلوح : حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة. عالم الكتب للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى .. 1980 ص 5.

يعد كتابه من أهم المصادر النقدية القديمة الغنية بالتجليات النصية خصوصا مفهوم التلقي الذي يعد من المفاهيم النصية النقدية المركزية بالنسبة للمنهج التحليلي عند حازم القرطاجني، بالنظر إلى أهميته في نقد الشعر والحكم على النصوص بالجودة والرداءة والتي سخر لها كل جهوده في المنهاج بواسطة مفهوم التخيل وأثره، في المتلقي.

فما هي أشكال التلقي، التي انطلق منها في مقارنته للنص الشعري؟

إن المتأمل في مضامين كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء، يلاحظ أهمية موضوع التلقي، باعتباره الموضوع الجوهرى، الذي حضي باهتمام بالغ من طرف حازم القرطاجني، وذلك عبر إثارته لمسألة التخيل والمحاكاة، المتمثلة في تأثير الشعر في النفوس، وما ينتج عن ذلك من تفاعل بين النص والمتلقي الضمني أو الصريح، علما أن ذكر مصطلح التخيل لا يذكر إلا وبجانبه مصطلح المحاكاة لما تتطلبه العملية الإبداعية من ترابط وتكامل بين المصطلحين ،باعتبارهما من أهم المفاهيم النقدية ذات الحمولة الفلسفية، بالنسبة للتيار النقدي الفلسفي سواء عند اليونان أو العرب ،نتيجة تأثر حازم القرطاجني، بسابقه من النقاد حول نظرية التخيل والمحاكاة خصوصا الناقد ابن سينا.

وانطلاقا من هذه الإعتبارات الفلسفية، يمكن القول أن نظرية التلقي عند حازم بمثابة الأساس

المنهجي لتحليل النص الشعري وفق شبكة من المفاهيم المستمدة أساسا من عالمي الفلسفة والبلاغة،والمتمثلة في تماسك النص الشكلي والمعنوي، والإقرار بأهمية القارئ في إدراك معنى النص والانتقال من منطوق الجملة إلى منطوق نحو النص بأدوات منهجية،وفق استراتيجية نصية واضحة المعالم،انطلاقا من المؤثرات التخيلية التالية :

أ- أثر التخيل على المتلقي :

إن المتتبع لكتاب المنهاج، وجود مواضيع كثيرة ترتبط بالتخيل، حيث بدل حازم القرطاجني جهدا كبيرا من أجل إبراز الأثر الذي يتركه التخيل في نفس المتلقي، والذي خصه صاحبه بمنهج كامل، وهو المنهج الثالث من قسم المعاني، وجعله في الإبانة عما تقوم به صنعتا الشعر والخطابة من التخيل والإقناع، معتبرا أن صناعة الشعر تقوم على التخيل إلى جانب الوزن والقافية، وذلك عبر تحديد الأنحاء الأربعة التي يقع فيها التخيل و "هي التخيل من جهة المعنى، والتخيل من جهة الأسلوب والتخيل من جهة اللفظ ثم التخيل من جهة النظم والوزن"¹⁴.

ولما كان التخيل له الأثر الكبير في نفوس المستمعين، فإن لوقوعه في النفس المتلقية طرقا ترفع من شأن فعاليته في النفس المتلقية. وقد أبرز حازم ذلك في قوله: "وطرق وقوع التخيل في النفس إما أن تكون بأن يتصور في الذهن شيء من طريق الفكر وخطوات البال، أو بأن تشاهد شيئا فتذكر به شيئا، أو بأن يحاكي لها الشيء بتصوير نحتي أو خطي أو ما يجري مجرى ذلك، أو يحاكي لها صوته أو فعله أو هيئته عما يشبه ذلك من صوت أو فعل أو هيئة، أو بأن يحاكي لها معنى بقول يخيله لها، أو بأن يوضع لها علامة من الخط تدل على القول المخيل، أو بأن نفهم ذلك بالإشارة"¹⁵.

بعد ذلك انتقل حازم إلى تحديد طرق وقوع التخيل في النفس، وهي أنماط كثيرة ترجع إلى اختلاف وقوعها في النفس، ومنها التخيل عن طريق المشاهدة ومنها التخيل عن طريق المحاكاة من خلال الخط والحركة والقول والإشارة، علما أن أحسنها "هي أن يعمد الشاعر إلى المناسبة بين المعاني والغرض الذي ينظم فيه الشاعر شعره، ويمثل لذلك بتخيل الأمور السارة في التهاني والأمور المفجعة في المراثي"¹⁶، ولعل أبرز مظاهر تأثير التخيل حينما يوظف الشاعر في شعره أنحاء من التعجيب، مما يتسبب للمتلقي في

¹⁴- حازم القرطاجني : منهاج البلاغة وسراج الأدباء. ص 89.

¹⁵- حازم القرطاجني : المصدر نفسه، ص 89-90.

¹⁶- حازم القرطاجني : المصدر نفسه، ص 90.

التأثر، ويحدث العجب لديه، ويذهب حازم إلى أن التعجيب "يكون باستبداع ما يثيره الشاعر من لطائف الكلام التي يقل التهدي إلى مثلها فورودها مستند ومستطرف"¹⁷.

وهكذا نستنتج أن حازم القرطاجني أولى عنصر التخيل أهمية كبرى، حين قرنه بالتعجيب وهي التي تتحقق من خلالها فعالية الشع ر، وتتحقق غايته المتمثلة في الإرتقاء بحركية النفس. وقد وصلت فكرة التخيل قمتها عند حازم القرطاجني بالرغم من اختلاف الدارسين حولها نظرا لتناولها من طرف العديد من الدارسين العرب المعاصرين المهتمين بدراسة التراث النقدي خصوصا كتاب منهج البلغاء وسراج الأدباء منهم مصطفى "الجوزو" في كتابه "نظريات الشعر عند العرب"، وشكري عياد في كتابه "أرسطو طاليس في الشعر"، ودراسة (محمد بلحسن)، في كتابه "التلقي لدى حازم القرطاجني" الذي اهتم بطبيعة التلقي عند النقاد العرب مع التركيز على تمظهرات التلقي عند حازم و (سعد مصلوح) في كتابه "حازم القرطاجني نظرية التخيل والمحاكاة في الشعر"، وهي من أبرز الدراسات التي خصها صاحبها بكاملها لقضية التلقي. إن فكرة التخيل انتشرت بكثرة بين النقاد والشعراء كل يفسرها بطريقته وانطلاقا من ثقافته ولعل هذه الفكرة تبدو تحريفا وتغريبا لفكرة المنظور المسرحي المنقولة إلى ميدان الشعر عامة، بدأ القول بها على ما نملك من نصوص في كتابات الفارابي، ولعله استقاها من مصدرين: مصدر لغوي قرآني، يتضمن التخيل فيه معنى الإيهام بالسحر والوهم عامة ومصدر يوناني وصل إليه عن طريق النقل والاختصار، وقد اكتفى الفارابي بالإشارة إلى أثر التخيل النفسي دون تعريفه، في حين أن عبد القاهر الجرجاني اضطرب في فهم التخيل أيما اضطراب لكونه تجاذبته جهات متناقضة فهو "كلامي يقدس العقل والحقيقة ويحتقر التخيل وبلاغي يحار بين إدخال الفنون البيانية حيز التخيل وبين إخراجها منه ، لأنها استعملت في القرآن والحديث ومنطقي يرى التخيل شيئا كالسفسطة، لكن نزعة الفنان فيه تنتهي به إلى تمجيد التخيل

¹⁷-- حازم القرطاجني : المصدر نفسه، ص 90.

وتفضيل الإيهام فيه على البيان في غيره، وإلى نسبة السحر إليه، صحيح أنه يضع التخيلي بإزاء العقلي لكنه كان مرة يستخدم هذا التناقض لدمه وتارة لمدحه .

ويجمع معظم الدارسين على أن حازم القرطاجني من أدق الذين عرفوا التخيل ، فهو قد عمق الموضوع ووسعه وجعله عربيا صافيا إلا مما يعتبر اقتباسا مفيدا و صهر الآراء السابقة جميعها في وحدة نظرية جديدة ولعل الجديد في نظرية القرطاجني ،"هو ذلك التطوير الأساسي الذي قام به، حيث قرن التخيل إلى العقل والمنطق والذكاء، في حين قرنه السابقون إلى الإيهام والتمويه أو مخالفة العقل والحقيقة.وينبغي أن نلاحظ أن الأهم الذين تناولوا موضوع المحاكاة والتخيل كانوا إما نقلة أو ملخصين لكتاب أرسطو في الشعر¹⁸ .

فالقرطاجني جاء بعد فترة، ليعمق الموضوع ويوسعه ويجعل عربيا صافيا إلا ما يعتبر اقتباسا مفيدا،وقد أخذ عن الفارابي وابن سينا، أي أرسطو بطرقي غير مباشرة،وأخذ كذلك عن الجرحاني، مطورا آراء هؤلاء جميعا في وحدة نظرية جديدة وتعريفه للتخيل أوضح تعريف رأينا.

و يرى "شكري عياد"، "أن فكرة التخيل كلها تعود إلى المصدر اليوناني من وجهة نظر الفلاسفة، فإنه عندما يولي وجهة شطر البلاغيين وبالخصوص حازم القرطاجني يذهب إلى القول بأن الفكرة التخيل والمحاكاة مطبقة أوسع تطبيق عنده، ويرى أيضا أن القرطاجني قد فاق أرسطو توسعا في تطبيق هذه الفكرة على الشعر"¹⁹، غير أن تعريف شكري عياد،لم يتضمن إشارة للتعريف بين التخيل والمحاكاة بالرغم أهمية هذه الدراسة تكمن في إشارة صاحبها إلى أن القرطاجني أحسن من فهم التخيل ووظفه في الشعر حيث يقول: " وهذا التعبير (أي مفهوم القرطاجني للتخيل) يشير إلى فهم جيد لنظرية التخيل عند ابن

¹⁸ - مصطفى الجوزو: نظريات الشعر عند العرب، ص 144.

¹⁹ - شكري عياد: كتاب أرسطو طاليس، ص 257.

سينا²⁰، في حين يرى سعد مصلوح، أن ما توصل إليه حازم لم يكن نقلا عن النقاد السابقين فيما يتعلق بالتخييل منتصرا لمبدأ التأصيل النظري، نافيا أن يكون حازم قد أخذ فكرة التخييل عن أرسطو في كتابه فن الشعر، وحينما يؤكد أن التخييل "إنما هو ابتكار إسلامي من طرف ابن سينا أخذه من مبحث أرسطو في النفس واجتهاده الشخصي في هذا المجال"²¹.

ومهما قيل عن مدى أصالة حازم القرطاجني، حول فكرة التخييل، فإنه لا يمكن إنكار مجهود حازم القرطاجني، في بلورة تصور نقدي متطور، ينبني على تأثير النص على نفسية المتلقي، باعتبارها كإحدى مظاهر تجلي مفهوم التلقي، ذلك أن "دراسة دقيقة للمصطلح الخاص بأثر الكلام في النفس تساعد لا محالة على فهم المظهر الجمالي من المنقبل، نذكر على سبيل المثال.. مصطلحات من قبل السرور والطرية والبهجة والأريحة والإستظراف والإرتياح والمسرة والتعجب والروعة والشغف والروح والإيناس والبهجة..."²². وهذا دليل على اهتمام حازم بالمتلقي، باعتباره المبدع الحقيقي للنص الأدبي لما يشعر به خلال عملية القراءة من ارتياح ولذة فنية.

ب- فعالية المحاكاة وتأثيرها في المتلقي :

إذا كانت فكرة التخييل، من أسس النظرية النقدية، عند حازم القرطاجني، كمظهر من تجليات التلقي، فإن فكرة المحاكاة، تعتبر الركيزة الأساسية الثانية، في هذه النظرية، رغم ما اصطبغت به من تقسيمات منطقية وتفريعات حزئية، أحالها إلى عملية حسابية منطقية مما يصعب على الباحث استقصاء مختلف جوانبها وعلاقتها الداخلية، باعتبارها امتداد لنظرية المحاكاة عند أرسطو ومختصره، ونقصد الفارابي وابن سينا وابن رشد وصولا إلى المعلم الأول.

²⁰-سعد مصلوح: حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر ص 180.

²¹-سعد مصلوح: حازم القرطاجني ونظرية التخييل والمحاكاة في الشعر، ص 129.

²²-شكري المبحوث: جمالية الألفة النصر ومتقبله في التراث النقدي، ص 40.

وقد قسم المحاكاة عدة تقسيمات كل تقسيم باعتبار خاص.

أ - قسمها بما يشبه ما اسماء البلاغيون اعتبار طرفي التشبيه، "متأثرا في ذلك بتقسيم ابن رشد للإستدلالات ذات المحاكاة الجيدة"²³. فهو يرى أن المحاكاة "قد يحاكي بها موجود بموجود أو بمفروض الوجود، من جنسه أو من غير جنسه... وكلها قرب الشيء مما يحاكي به كان أوضح شبها وكلما اقتربت الغرابة والتعجيب بالتخييل كان أبداع"²⁴.

إن هذا التقسيم يدل على أن حازما لم يخرج عن المفهوم العربي للمحاكاة وجعلها مرادفا للتشبيه أي أنه لم يخرج عن الدائرة البلاغية في هذا الشأن إلا بزيادة التقسيمات. وهو يلزم ما قال به ابن سينا عن الغرابة والتعجيب"²⁵.

ب- وقسم المحاكاة باعتبار القصد أي الغاية فقارب في ذلك كلام البلاغيين على أغراض التشبيه فأنواع المحاكاة عنده هي:

1- محاكاة تحسين.

2- محاكاة تقبيح.

ج- ويقسم المحاكاة باعتبار الوجود والفرض، فيذكر بتقسيمات المنطقيين لأسماء فهو يقسم

المحاكاة، إلى:

1- محاكاة وجود.

2- محاكاة فرض.

ويقسم كلا من هاتين أربعة أقسام.

1- محاكاة مطلقة.

2- محاكاة شرط.

²³- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء، وسراج الأدياء، ص 114.

²⁴- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدياء، ص 14 و ص 96.

²⁵- حازم القرطاجني : المصدر نفسه ص 14 و ص 96.

3- محاكاة إضافة.

4- محاكاة تقدير وفرض.

د- ويقسم محاكاة الوجود للموجود، فمزج بين تقسيم النحويين للبدل وتقسيم البلاغيين للتشبيه من

حيث طرفيه، وإذا أماننا:

1- "محاكاة كلي بكلي.

2- محاكاة جزئي بجزئي.

4- محاكاة محسوس بمحسوس.. الخ".²⁶

نستنتج من خلال هذه التقسيمات، أن نظرية الشعر عند حازم القرطاجني، تقوم على إحدى الركائز الأساسية، وهي الوظيفة النفسية التي لا تتحقق إلا بالتخييل، عن طريق المحاكاة، التي لا يتأتى لها إحداث التأثير في نفس المتلقي إلا من خلال تضافر جملة من الشروط يجمعها حازم في قوله : "وليست المحاكاة في كل موضع تبلغ الغاية القصوى من هز النفوس وتحريكها، بل تؤثر فيها بحسب ما تكون عليه درجة الإبداع فيها، وبحسب ما تكون عليه الهيئة النطقية المقترنة بها وبقدر ما تجد النفوس مستعدة لقبول المحاكاة والتأثر لها"²⁷.

إن القارئ لهذا الإستشهاد، يستنتج أهمية، تلقي النص عند حازم القرطاجني، باعتبارها من أسمى عملية القراءة، والتماهي مع النص، حسب الغاية من الشعر منذ بداية نظمه إلى أن يصل إلى سمع المتلقي، ولن تحصل هذه الغاية إلا إذا، توفرت شروط ثلاثة حسب المحاكاة في النفوس، وقد جعل أولها متعلق بدرجة الإبداع في المحاكاة ولا تتحقق أيضا إلا بحسن التأليف في القول المحاكين أي بالأمور التي تتعلق باللفظ أو المعنى أو النظم أو الأسلوب، أما الشرط الثالث فعده حازم للمتلقي ومدى استعداده للتأثر بالمحاكاة، وهي بمثابة أركان أساسية للعملة الإبداعية.

²⁶-حازم القرطاجني : منهج البلاغ وسراج الأدباء ، ص 92-93.
²⁷- حازم القرطاجني : المصدر نفسه، ص 121.

ويتميز تصور (حازم القرطاجني) لمسألة التلقي عن طريق الربط ما بين توفر ه معايير نصية،يستطيع القارئ أن يتبنى أفق توقع معايير للكاتب، ويساهم في التواصل مع النص وتحقيق المتعة الجمالية والفنية،إضافة إلى توفر المتلقي،على استعدادين اثنين الأول، بأن تكون للنفس حال وهوى قد تهيأت بهما لأن يحركها قول ما بحسب شدة موافقته لتلك الحال والهوى.

ومعنى هذا الكلام استجابة المتلقي لما يتلقاه،وفق الإستعداد النفسي،أما الإستعداد الثاني في نظر حازم ،فهو "أن تكون النفوس معتقدة في الشعر أنه حكم وأنه غريم يتقاضى النفوس الكريمة الإجابة إلى مقتضاه بما أسلبها من هزة الإرتياح لحسن المحاكاة ²⁸.وهذا بمثابة مؤشر بارز على تجليات مفهوم المتلقي عند حازم، منذ وقت مبكر خصوصا ما يتعلق بالتفاعل بين قطبين العملية الإبداعية، القطب الجمالي والقطب الفني عبر إعطاء الأهمية القصوى للمتلقي ذلك "أن حازما يجعل المتلقي نفسه منخرطا في عملية تهيئ وإنتاج الأجواء المولدة للهزة والتحرك المرجو من فعل الإبداع" ²⁹، وهو يعكس إحدى مظاهر تجلي المتلقي،عبر التصور الفلسفي، للنص الأدبي كاستمرار لرؤى النقاد الفلاسفة، مما انعكس في شكل بناء شبكة من المفاهيم ذات التقسيمات المنطقية والتفريغ مما جرى عليه الكثير من الإنتقادات، التي رأت في محاولته نقل مفهوم المحاكاة من البيئة الفلسفة إلى البيئة البيانية، مجرد اجترار وإخفاق، إلى حد السخرية حيث يقول مصطفى الجوزو، معلقا على ذلك.

"وزيدة القول أن الجبل تمخض فولد فأرا لأن صاحبنا الذي طمح إلى وضع علم الشعر المطلق واستكمال نظرية أرسطو وتحقيق مرتجي ابن سينا لم يخرج عن أفكار سابقه إلا في تقصي الحالات المختلفة للمحاكاة، عن طريق المناطقة والبلاغيين،فابتدع تقسيمات كثيرة قليلة الغناء مرهقة، وبدا بلاغيا أكثر منه صاحب نظرية شعرية، وذلك إذ كاد يخلط معنى المحاكاة بمعنى التشبيه خطأ تاما..."³⁰.وهو تصور مبالغ فيه، بالنظر إلى تحليلات حازم القرطاجني مقارنة بتصورات النقاد المشاركة، حول تلقي

²⁸- حازم القرطاجني : المنهاج: ص 121-122.

²⁹- محمد بن لحسن: التلقي لدى حازم القرطاجني ط 2011، ص213.

³⁰- مصطفى الجوزو : نظريات الشعر عند العرب، ص 109.

النص الشعري، بحيث نلاحظ استقصاء دقيق لمستويات هـ والوعي بالعلاقة الجدلية ما بين النص والمتلقي، والقدرة على التحليل الم منهج، عبر إثراء معجم التلقي، بثروة لفظية واصطلاحية، من أجل التأكيد على التلقي وأهميته في نقد الشعر، كدليل على أصالة التلقي التي سخر لها معظم جهوده في المنهاج وهذا ما جعل من تصوره يتسم بالبعد المنهجي المحكم والبعد الفلسفي العميق، "فعملية التلقي في مفهوم حازم ومنظوره ليست عشوائية تخضع للصدفة، سواء من جانب المتلقي، بل إنها مخطط مضبوط ومحكم" تضبطه شروط محددة سلفاً، بحيث أن تستحضر من لدن الشاعر والمتلقي، إن هذا الإستعداد بنوعية يشكل ما يشبه العقد الضمني بين القائل والمقبول له، عقد يتضمن وجود سامح يستقبل القول الشعري حسب استعداد مماثلة أو متشابهة، من حيث الإلتذاذ بالتخييل ومناسبته للطبيعة، وتجاوبه مع حاجات النفس الجمالية ووفق منطلقات تجعل القائل يرسل القول الشعري وهو يعرف أن ثمة مرسلًا إليه يستقبله³¹. وهذا يجسد لنا إحدى مظاهر الإبداع، من خلال نموذج التلقي الفلسفي للنص الشعري.

ج- التلقي عند حازم بين استراتيجية التمويه والإحتيال:

تعتبر خاصية التمويه من المظاهر اللافتة، أثناء البحث عن كيفيات التأثير في المتلقي والسيطرة عليه، وهي عبارة عن سلسلة من العناصر التي تتمحور حول استراتيجية التمويه والإحتيال، لأن الغرض من الشعر والخطابة في رأي حازم يتمثل في، "إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر بمقتضاه"³². وتعتبر خاصية الحيلة، عبارة عن استراتيجية لها تقنياتها الخاصة، التي يستعملها الشاعر لبلوغ التأثير في المتلقي ويوضح حازم القرطاجني، ذلك في "معرض" خاص بإيقاع الحيل الشعرية حيث يرى أن "الأقاول الشعرية أيضا تختلف مذاهبها وانحاء الاعتماد فيها بحسب الجهة أو الجهات التي يعقني الشاعر فيها بإيقاع الحبل التي هي عمدة في إنهاض النفوس لفعل شيء أو تركه أو التي هي أعوان للعمدة، وتلك الجهات هي:

³¹-فاطمة الوهبي: نظرية المعنى عند حازم، ص 236.
³²- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 346.

- ما يرجع إلى القول نفسه.

- أو ما يرجع إلى القائل.

- أو ما يرجع إلى المقول فيه

-أو ما يرجع إلى المقول له.

"والحيلّة فيما يرجع إلى القول وإلى المقول فيه وهي محاكاته وتخييله بما يرجع إليه أو بما هو مثال لما يرجع إليه هما عمودا هذه الصناعة، ومما يرجع إلى القائل والمقول له كالأعوان والدعامات لها...³³. ونلاحظ من هذا الاستشهاد، أنه مأخوذ عن ابن سينا الذي يتحدث في الخطابة عن أنواع الإقناع التي يربطها بالتحسينات المتعلقة بالقول، والقائل والمقول له، لكن القرطاجني، يتبناها ويطبقها على الشعر مضيفا إليها عنصرا رابعا يتعلق بالمقول فيه..الموضوع، غير أن الذي يعيننا هما الحيل المتعلقة بالمتلقي والتي يقصد بها الكيفية التي يمارس فيها التخييل تأثيره على المتلقي، من حيث إثارة انبساطه أو انقباضه أو إنتاج حالة ميل إلى شيء أو نفور عنه، وهذا يقترب من مفهوم يابوس حول أفق التوقع الناتج عن طبيعة الجنس الأدبي، الذي ينتمي إليه النص، ومدى توفره على إمكانات جمالية تساعد المتلقي على تكوين أفق انتظار مغاير لمنتجهن عن طريقة ملء بياضات النص واستحضار المسافة الجمالية خصوصا حينما يتعلق الأمر بالنصوص التي تشكل انزياحا عن نمط الكتابة السائدة، مما يولد نوعا من الإنفعال لدى المتلقي أثناء استقباله للنص، حسب درجات الإستجابة للصور الفنية والمعجم الشعري بالنسبة للنص الشعري.

ويوضح حازم القرطاجني ذلك في الكيفية التي تتم بها الإستجابة للصور المخيلة في الشعر من خلال مقارنتها بالصور التي تجسدها الفنون الأخرى، كالرسم، والنحت، والنقش، وذلك عن طريق التمويه على السامع وخ داعه، وجعله ينفعل دون تنبه للكذب أو الخداع يقول: "والتمويهات تكون بطي محل

³³- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 346.

الكذب من القياس عن السامع، أو باعترار إياه ببناء القياس على مقدمات توهم أنها صادقة لا لاشتباهه بما يكون صدقا، أو بترتيبه على وضع يوهم أنه صحيح لإشتباهه بالصحيح أو بوجود الأمرين معا في القياس أعنى أن يقع الخلل من جهتي المادة والترتيب معا، أو بإلهاء السامح عن تفقد مكان الكذب، وإذ كان إلى حيز الوضوح أقرب منه إلى حيز الوضوح أقرب منه إلى حيز الخفاء بضروب من الإيداعات والتعجيبات تشغل النفس عن ملاحظة محل الكذب الخلل الواقع في القياس³⁴.

يعكس لنا هذا النص الهام مستويات التلقي الفلسفي لدى حازم، وذلك عبر الإقرار بفعالية النص الشعري استنادا إلى أسس سيكولوجية وفلسفية، سبقه إلى ترسيخها الفارابي وابن سينا وتعلق بكيفية جعل المتلقي يذعن للتخييل، وهي عبارة عن "عملية إيهام تقوم على مخادعة المتلقي وتحاول أن تحرك قواه غير العاقلة، وتثيرها بحيث تجعلها تسير أو تجدر قواه العاقلة، وتغلبها على أمرها، ومن هنا يذعن المتلقي لمخيلاته"³⁵.

خلاصة :

نستج من خلال تناولنا لموضوع التلقي الفلسفي للنص الشعري،مدى أهمية تصورات حازم القرطاجني للعملية الإبداعية،خصوصا ما يتعلق بالمتلقي،باعتباره مفتاح القراءة الموضوعية للنص الشعري،المرتكزة على عناصر أساسية كالتخييل والمحاكاة،المستمدة من التصورات الأرسطية،كما جلاها الفارابي وابن سينا. لكن الآراء الأرسطية استأثرت باهتمام حازم أكثر،فركز عليها،محاوفا أن يؤسس استنادا إلى نظريته النقدية المبنية على قواعد فلسفية متماسكة،ملاح فلسفية لنظرية التلقي عند النقاد العرب القدامى من منظور فلسفي،باعتباره العنصر المركزي الذي يستوقف قارئ (كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء)،وما ينتج عن ذلك من تأثير في المتلقي،كما تدل على ذلك،عدة مفاهيم نقدية،ذات حمولة نفسية

³⁴-زياد صالح الزعبي: المتلقي عند حازم القرطاجني، - مجلة الجامعة الإسلامية المجلد التاسع العدد الأول 2001، ص 339-363.

³⁵- محمد بلحسن: التلقي من خلال منهاج البلغاء، مرجع سابق. ص 39.

وفلسفية، إلى جانب مجهودات البلاغيين العرب حول التمكين، مما يدل على أحد مظاهر الأصول
المعرفية لنظرية التلقي ذات الإمتدادات المتنوعة والتي تعود إلى الفلاسفة اليونانيين وعلى رأسهم ارسطو .

المصادر والمراجع المعتمدة عليها :

أولاً : المصادر :

- أبي الحسن بن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق محمد محيي الدين

دار الطلائع للنشر والتوزيع. القاهرة . طبعة 2009.

- بن طبابا العلوي : عيار الشعر. شرح وتحقيق عباس عبد الستار. دار الكتب العلمية. بيروت

لبنان. ط. 2005.

- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تحقيق محمد الحبيب بن خوجة. دار العربية

للكتاب. تونس . السنة 2008.

ثانياً - المراجع :

- الجوزو مصطفى : نظرية الشعر عند العرب والجاهلية والعصور الإسلامية. دار الطليعة للطباعة

والنشر. بيروت. الطبعة الأولى. 1981

- سعد مصلوح : حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر. عالم الكتب .الأردن. طبعة

1980.

- محمد بلحسن : التلقي لدى حازم القرطاجني. عالم الكتب. إربد. الأردن. 2011.

- محمود عباس عبد الواحد : قراءة النص وجمالية التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا

النقدي. دراسة مقارنة. دار الفكر العربي .مدينة نصر. مصر. الطبعة الأولى 1996.

- شكري المبحوث: جمالية الألفة. المجلس التونسي للعلوم والآداب والفنون. بيت الحكمة. تونس. طبعة 1993.

- نظم عودة خضر : الأصول المعرفية لنظرية التلقي. دار الشروق والتوزيع. عمان الأردن. ط1997.

- صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النص .كتاب عالم المعرفة.العدد 164.السنة 2002.

- فاطمة الوهبيي : نظرية المعنى عند حازم .المركز الثقافي العربي .طبعة 1999.المغرب.

ثالثا: المجالات والدوريات المعتمد عليها:

- زياد صالح الزعبي : حازم القرطاجني .مجلة الجامعة الإسلامية المجلد التاسع العدد الأول 2001.

- زين العابدين :حميلي : نظرية جمالية القراءة في التراث النقدي العربي القديم.مجلة آفاق .العدد الثالث .أبريل 2017.المركز الجامعي ل تمنغاست .الجزائر .

المصادر والمراجع :

✓ المصادر :

1. ابن طباطبا العلوي : عيار الشعر، تحقيق طه الحاجري، ومحمد زغلول سلام القاهرة 1956.
2. حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدياء، الدار العربية للكتاب، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بلخوجة، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
3. ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر ونقده (1-2)، تحقيق محيي الدين عبد الحميد. بيروت 1972.

✓ المراجع ::

- 1) سعد مصلوح: حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر، ط 1، عالم الكتب، القاهرة 1980.
- 2- شكري المبخوث : جمالية الألفة، النص ومتقبله في التراث العربي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة تونس، 1997.
- 3-صلاح فضل :بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، العدد164، أغسطس 1992

- 4- عياد شكري محمد: كتاب أرسطوطاليس في الشعر، نقل أبي بشر متى ابن يونس القنائي من السرياني إلى العربي، حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967.
- 5- فاطمة الوهبيي : نظرية المعنى عند حازم القرطاجني، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2002.
- 6 محمد بلحسن : التلقي لدى حازم القرطاجني، الطبعة الأولى 2011. عالم الكتب الحديث. إربد الأردن.
- 7 - محمد المبارك : استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999.
- 8 - محمود عباس عبد الواحد : قراءة النص وجمالية التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي. الطبعة الأولى. 1997. دار الفكر العربي. القاهرة. مصر.
- 9 مصطفى الجوزو: نظريات الشعر عند العرب. الطبعة الأولى 2011. دار الطليعة للنشر. بيروت. لبنان.
- 10 - ناظم عودة خضر : الأصول المعرفية لنظرية التلقي. الطبعة الأولى. 1997. دار الشروق. عمان الأردن.

✓ المجلات:

1. زياد صالح الزعبي : المتلقي عند حازم القرطاجني، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد التاسع العدد الأول، السنة 2001.
2. زين العابدين جميلي: إرهاصات نظرية جمالية النقدي، مجلة آفاق المركز الجامعي لتمنغاست، العدد الثالث عشر، أبريل 2017. الجزائر.

3. عبد القادر عواد :التلقي والتواصل في التراث العربي،،حوليات التراث،جامعة

مستغانم،،العدد12السنة2012.

علي بخوش : مجلة الناص،العدد22ديسمبر 2017.